2015 05uu - 0005 - 2

«دومري» الحرب

د. جان توما

«الدومري» هو الذي كان يضيء قناديل الطرقات، عندما يهجم الليل بسواده، لينير الأزقة القديمة. ولما هجمت حرب على الأحياء تحوّل أهل الحي إلى« دومرية» يضيئون قناديل المازوت لإنارة الدروب، يوم راحت الكهرباء عن طرابلس والميناء، وازدهرت مكويات الفحم وعلب الشموع قبل أن تتفتّح ذهنيات التجار على دور المولدات الكهربائية في تأمين البديل عن شبكة الكهرباء.

يومها، نظّمت لجان الأحياء نفسها للحماية والسهر والإنارة لينعم الباقون بنوم هانىء، قبل أن تتمكن زنود الشباب من حفر الطريق الممتدة من سكة الحديد إلى البداوي، لرفع أعمدة لمدّ الأسلاك النحاسية لتأمين شبكة جديدة بإستجرار الكهرباء من البداوي إلى الفيحاء. لعب البسطاء دور«الدومري» لأنهم كانوا يؤمنون أنّهم يضيئون شمعة أمل ورجاء في عتمة الحرب الدائرة، لعلّهم وجدوا البديل عن المشاركة في القتال بالمشاركة في إنارة السلام وتعميم النور. هذا القنديل صاحب اللون الأزرق القاتم كان يعلّق مع غيره على حبال من نايلون تمتدّ من زاوية دار إلى أخرى، تتقاذفه الأمطار والرياح والحرّ ويبقى قبس رجاء وشيئاً من التعلّق بالآتي السعيد.

وكان أهل الحارات يؤلفون نوبات حراسة لتأمين «دعسة رجل» لطمأنة النيام في زمن التهجير وإخلاء القرى وتدفّق الهاربين من المحيط المتفجّر إلى الأمان الذي كانت تنعم به عاصمة الشمال، ما دعا إلى قيام عمل مدني توزّع فيه المتطوعون على الأفران ومراكز توزيع جرار الغاز لتنظيم التوزيع والسهر على تأمين الرغيف والمحروقات لضمان استمرار الحياة.

ربّ متسائل: أين ذهب تراث هذا العمل المدني؟ ولماذا لم يستمر؟ ولماذا لم يستثمر هذا الكمّ من العمل العام إلى اليوم؟ واستطرادا أين ذهبت تجربة التجمع الوطني للعمل الاجتماعي؟ من أرّخ لهذا العمل التعاوني العام لمساندة المؤسسات الرسمية في تسيير الأمور اليومية العامة لصمود المدينة وتأمين الحاجات اللازمة؟ قد يكون عمل التجمع ودوره انحصر في مرحلة محدّدة تماشيا مع الواقع العام للمدينة، ولكن ما صحّ في زمن الحرب لا يصحّ في زمن السلام والتنمية المطلوبة لقيام ورش العمل على الأصعدة كلها لنهضة المدينة؟

إن حرب السنتين ولّت ولكن تداعياتها أثّرت على هوية الفيحاء ودورها، ما يستدعي إعلان النفير من مختلف الشرائح لتسيير مرافقها الحيوية من معرض ومرفأ ومطار وغيرها من المشاريع تأميناً لفرص العمل ودعماً لحياة أهلها الذين عانوا منذ حرب السنتين من ألف جولة وجولة. آن لطرابلس أن ترتاح وآن لمسؤوليها السياسيين ولأبنائها أن يتكاتفوا لرفع شأنها وتثبيت حضورها السلمي على خارطة المدن الحضارية الفاعلة وأن تعود «دومرياً» يضيء قناديل الإنماء والإعمار لأنها تستأهل كل خير.